الوطنية في الأدب المصريّ (الفرعونيّ) القديم

بقلم

الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف

استاذ الآثار المصرية المساعد بجامعة بنغازي

كبير الأثريين بمركز تسجيل آثار ودراسة تاريخ الفن

والحضارة المصرية القديمة بالقاهرة

الوطنية في الادب المصري (الفرعوني) القديم

لعل المصري القديم أن يكون أشد الناس وطنية وحباً لبلاده واعتزازاً بها . بل لقد أحبها حباً لم يحببه مواطن وطناً . وتكاد عاطفة حب الوطن والحنين إليه والاعزاز له ، والحرص على علائه والحزن على بلائه تتمثل في كل ما لدينا مما أخرج من نظيم الأدب القديم ونثيره. أحب فيها الحزن والسهل ، والصحراء والخضراء ، وأحب فيها سماء زرقاء صافية وشمساً وضاحة سافرة أبداً قل أن تتبرقع بالسحائب والغيوم . وأحب فيها النيل الذي كان لــه كالشريان الذي يجري في الجسم فتجري بجريانه الحياة، فروى أرضه وأينع حصده وغذاه بمائه ، وأحب فيها كما سماه « نسيماً حلواً يقبل من الشمال » كان يعده من متع الدنيا والآخرة . لقد رأى بلاده نعمة من الخالق ذرأها نعيماً للمخلوق . وحسبنا من دليل على حبه لها واعجابه بها وتقديره لمكانتها في نفسه أنه تخيل الفردوس الذي ينعم به في الآخرة صورة من مصر وما أوتيت من حظ عظيم بل لقد كان الكد والكفاح في أرضها متعة لم يكره استئنافه في الفردوس هناك[1] .

كانت مصر نعمة من الخالق ، وكانت أعز ما خلق وأنعم به على الناس ، ولقد عبر عن عرفانه بذلك في فصل من متون الأهرام ، وهي من أقدم فصول الأدب الديني عند المصريين ، حيث شبهت مصر فيه بعين (حور) عين الاله الذي ضحى بها من أجل أبيه (اوزيريس) وذلك في صراعه مع عمه (ست) ليأخذ بحقه في ارث أبيه وينتقم له . وأصبحت عين (حور) منذ

ذلك التاريخ البعيد رمزاً لأعز ما يقدم من الهدْي والقربان، وكانت مصر كذلك أعظم ما خلق الاله الذي شيدها فأحسن التشييد ، وأفاض عليها من الزينة والجمال ما ألهج بالحمد لسان العابد حيث يقول مخاطباً مصر :

« حمداً لك يا عين حور
يا من زينك بيديه
إنه هو الذي زينك
إنه هو الذي شيدك
إنه هو الذي أسسك »[٢] .

وكان يقدر نعمة الاستقرار التي أتاحتها له بلاده الخصيبة الآمنة ، فكان ينظر إلى حياة البداوة وما فيها من التنقل والقلق فيقدر لبلده ما يجد فيها من الرغد وخفض العيش ، حيث يصف حال البدوي فيقول :

« إنه لا يحيا في مكان واحد ولكنه هائم الأقدام ، حيث ظل يقاتل منذ عهد (حور) فلم يغلب ولم يغلب... لا يعلن اليوم الذي يقاتل فيه (أي بغير بغتة) وقد ينهب محلة منعزلة ولكنه لا يقاتل بلداً آهلاً »[٣] .

وحسبنا دليلاً على اعجابه ببلاده أنه لما خرج منها فساح في الأرض ورأى غير مصر من البلاد لم يعجبه غيرها بلداً وموطناً ، ولم ترق في عينيه بلاد فيها جبال وتلال وغيوم وأمطار وأشجار وغابات فأعرض عنها ، بل واعتبر أرضاً بمثل تلك الظروف بلداً حرم السعادة والبركة التي حظيت بها مصر التي ظل يرى فيها مقياساً يقاس إليه كل بلد فلا يبلغ منزلته . كتب كاتب إلى زميل له يقول :

« إنك لم تجس خلال سورية حيث السماء مظلمة بالنهار وحيث تغطيها أشجار السرو والبلوط التي تطاول السماء ، وهناك الأعداد من الأسود التي تفوق الفهود والضباع ، كما يحوطها البدو من كل جانب ، إن الرجفة لتأخذك وشعر رأسك لينتصب على أطرافه وتهوي روحك في يدك إذ طريقك مملوء

بالجلاميد والحصى فلا أثر تمشي عليه حيث يغشاك الغاب والشوك والحسك وآثار الذئاب »[٤] .

ورأى أنهار دجلة والفرات تجري من شمال إلى جنوب وعهده بالنيل في مصر يجري من الجنوب إلى الشمال ، فوجد في ذلك خلافاً لما ينبغي من سنة الأنهار ، فسماها « المياه المعكوسة التي تهبط التيار في اتجاهها إلى الجنوب »[٥] .

ونقرأ بعض ما كتب المصريون في النيل فنجد استشعاراً لما أفاء عليه من النعمة والخير وعرفاناً وحباً لذلك النهر الذي أقبل يغذو وطنه الحبيب الذي ملكت عليه حياته كل ربوعه :

« تحية لك أيها النيل
يا من خرج من الأرض وأقبل يحيي مصر
إنه هو الذي يروي المروج التي خلقها (رع) ...
... ليقيم كل ظمآن حياً
وهو الذي يسقي الصحارى وما بَعُد عن الماء
فان منه الندى الذي يهمي من السماء ...
إنه صاحب زمام نيرى (إله الحصيد)
ومنجح صنعة (يتاح) ... ...
رب الأسماك وصانع الشعير وخالق القمح
....
إذا هبط كانت الأرض كلها في أتراح وحزن الكبير والصغير
وإذا طما كانت الأرض في أفراح
إنه الآتي بالغذاء ، الغني بالارزاق
خالق كل خير ، رب الجلال ، حلو العبير »[٦] .

وكذلك فقد كان مقدراً للخالق تلك النعمة التي أرسلها ، فإذا به هو ويدعو ربه شاكراً معدداً آلاءه يناديه بأعظم صفاته فيقول منها « يا خالق النيل »

ويرى فيما يرسل على غير مصر من الأمطار « نيلاً » يهمي من السماء :

« يا خالق النيل في العالم السفلي
فتجريه كما تشاء
تحفظ حياة الناس لأنك خلقتهم لنفسك
أنت للأرض كافة الرب الذي يشرق لهم
كل البلاد القصية أنت خالق حياتها
وذرأت لهم نيلاً في السماء يهمي من أجلهم
فيموج على الجبال كالبحر العظيم
يروي حقولهم في مداتنهم[٧] .

ولقد كان للشمس من حبه واحساسه وتقديره النصيب الأوفى ، ولم يكن في حديثه عن الشمس مجرد عابد يردد الحمد والدعاء لما عبد واله بل كان إنساناً رقيق الحس يستشعر الجمال ويسحره الفن بما فيه من أصباغ وألوان :

« تحية لك يا « رع » الجميل في كل يوم
يا من يشرق في الصباح بغير انقطاع
يا « خيري » يا مجتهداً عملاً ...
إذا أشرقت هان الذهب فهو ليس كمثل بريقك
يا منشيء نفسه وصانع جسده
يا خالقاً وليس بمخلوق
....
يا فريداً في صفاته وعابر الأبدية
إن بريقك كبريق السماء وإن ألوانك لتضيء أكثر من اديمها
كل العيون تنظر بك ولا عمل لها إذا غربت[٨] .

ولقد أوتي المصري من دقيق الاحساس ورقيق الشعور ما ربطه ببلاده ووثق عواطفه بها فأحبها حباً صادقاً فيه عمق وحنين يجذبه إليها كما عبر

(اخناتون) عن ذلك في أناشيده رغم ما أراد لعقيدته من صبغة عالمية تشمل الناس أجمعين .

« إنك لجميل عظيم
متلألىء رفيع فوق كل البلاد
قد أحاطت أشعتك بالأقطار وبكل ما خلقت
أنت « رع » حملتهم أسارى
وأوثقتهم جميعاً بحبك
أنت رفيع وقد فاضت أشعتك قرباً »(٩).

كذلك كان حب المصري مصر وحنينه إليها ، فكان لذلك حرصه على أن تمتد حياته وحياة أسرته وأبنائه فيها ثم الموت والدفن في تربتها .

ويتمثل ذلك الحنين فيما وصل إلينا من قصص الأسفار والمغامرات ، فلا يغفل مؤلف القصة لمحة أو لمحات يعبر بها عن بعد الوطن والشوق المستبد به والحنين إليه . ومن أروع ما صور لنا من ذلك قصة ساتوهى، وهي تروي قصة أمير من أمراء الأسرة الثانية عشرة خرج مع الجيش المصري بقيادة ولي العهد (ستوسرت) لقتال قبائل (التحنو) ، وكان أن توفي الملك (امنمحا الأول) والجيش على الطريق ، فأرسل الموظفون من سمار الملك بالقصر من يبلغ ولي العهد سراً بذلك النبأ ويستدعيه على عجل . ويتحدث ساتوهي فيقول :

« ولقد كنت قائماً هناك عن قرب حين أقبل الرسول فسمعت صوته وهو يحدثهم ، فإذا قلبي يضطرب ،.. وذراعاي ترتخيان والفزع يدب في أوصالي جميعاً ... وكان أن وليت وجهي شطر الجنوب فقد قررت ألاّ أعود الى القصر، إذ قدرت أن فتنة سوف تقع هناك ولا أستطيع القول بأني سوف أعيش بعدها .. »(١٠) .

ومضى ساتوهي في فراره يقطع الفيافي والقفار حيث تسلمه بلد إلى بلد وهو في أثناء ذلك يواجه الموت من الجوع والعطش والاعياء، حتى استقر

به المقام في سورية . هناك استقبله حاكم الإقليم فأحسن استقباله ووطأ له جانبه وألان له الحديث وجعله على رأس بنيه وزوجه كبرى بناته، ثم أذن له أن ينتقي من أرض بلاده خير ما يملك فوهبه له فكثر ماله وأصبح ذا ثراء ضخم وسلطان واسع وجاه عريض ، ثم تولى قيادة الجيش فضم إليه ما فتح من الأرض ، وكان قد أتيح له فضلاً عن ذلك أن يقضي على حساده ومنافسيه فدانت له البلادهناك بغير منازع ، ودرت عليه أخلاف الرزق ما جعله يتذكر ما تعرض له من التشرد والأذى وما وقع له من المحن والخطوب ، وقد تبدل شقاؤه نعيماً وعسره يسراً فيعبر عن ذلك في أسلوب مؤثر جميل فيقول :

« أصبحت غنياً بما عندي من عبيد وما لي من بيت فخم ومكانة رفيعة ، لقد فعل ربي ما فعل رحمة بمن أضله الهوى ففر إلى بلد غريب ، إن يوم النصر هذا إنما هو إيذان برضوان ربي عليّ . لقد كنت بالأمس لاجئاً ولكني أجد اليوم من ينتصر لي . كنت هارباً يبيت على الطوى ويبرح به الألم والجوع ، والآنيطعم الجار من زادي. وكنت أهيم بعيداً عن وطني في العراء ، ولكني أتألق اليوم بأثواب الكتان . كنت حائراً مضطراً إلى الجري لا أجد من أرسله ، أما اليوم فأنا أملك جموع العبيد وهذه داري أنيقة ورحابي واسعة وقد ارتفع ذكري إلى مسامع القصر »(١١) .

ولكن النعيم الذي عاش فيه الرجل لم يكن ليلهيه عن وطنه والشوق لرؤيته والتطلع لأن يستقر جسده فيه بعد موته ، فكان ذلك التعبير المؤثر الذي يصور لنا الحنين أحسن تصوير ويصور لنا اعزاز الوطن كيف يكون، وكيف يحمل الرجل على ترك قبيلته وبنيه وأمواله ليعود إلى وطنه، وتصور لنا ذلك الفرح الذي أخرجه عن طوره ووقاره وعقله ــ وكان قد طعن في السن وشب أبناؤه وتزوجوا وأصبح لكل منهم قبيلته كل ذلك حين عفا عنه الملك وأذن له بالعــودة .

« يا رب ، يا من قدر على الفرار ، كن رحيماً بي وأعدني إلى بلادي ،

هلاّ قدرت لي رؤية البقعة التي يحن قلبي للعيش فيها؟! أمن شيء لديّ أعظم عندي من أن يدفن جسدي في الأرض التي ولد فيها ، آتني غوثك ، لقد حل الخير وتأذن الله برحمته ، فهل ... يُحسن ختام من أحزن قلبه ... وفرض عليه الحياة في الغربة... وهل يسمع دعاء من على البعد ...؟! »[١٢]....

... ولما خوطب جلالة ملك مصر العليا والدنيا ... في حالي ... أرسل إلي ... هيا عد إلى مصر ... وبلغني هذا الأمر وكنت واقفاً بين أقاربي من أهل القبيلة ، فلما قرىء عليّ خررت ساجداً ثم قبضت قبضة من تراب فحثوتها على رأسي ثم اندفعت في الحيّ حول خيامي أصرخ فرحاً ... »[١٣] .

فالوطن عند المصري مسقط رأسه الذي ولد فيه ودرجت طفولته في كنفه وتربى في رحابه وعاش على ضفافه، لا يعدل به مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً فضلاً عن وطن آخر .

ولقد كان الوطن كذلك مهد الأسرة من زوج وولد ، وكانوا أثمن ما يقدر المصري ويعتز به ، وكانت العودة إلى الوطن بعد غربة ، ولقاء الزوجة والبنين من أشد ما يبعث الفرح والغبطة إلى نفسه ويملؤها سعادة ورضا ، ولنا من ذلك مثل فيما ورد من قصة بحار حطمت الأنواء سفينته وحملته الأمواج بين الموت والحياة إلى جزيرة في البحر؛ هناك استقبله افعوان هائل كان ملك الجزيرة فأحسن استقباله وهدأ من روعه وبشره بأنه عائد إلى وطنه في سلام قال :

« لسوف تملأ أحضانك بأبنائك وتقبل زوجتك وترى بيتك ، وأجمل من كل شيء انك سوف تبلغ وطنك وتعيش هناك مع أطفالك وفي وسط اخوتك... انظر لسوف تبلغ وطنك في شهرين فتأخذ أطفالك في أحضانك وتسعد في الوطن » [١٤] .

كانت العودة إلى الوطن أقصى ما يتمنى المصري المغترب ، وكان ذلك يملؤه سعادة ذهبت مضرب الأمثال . من ذلك رجل ضاقت به سبل الحياة وخنقه الهم واستولى عليه اليأس القاتل ، فلم يجد خلاصاً من محنته إلاّ بالموت قال :

« إن الموت أمامي اليوم
كالشفاء الذي يرتد إلى المريض
وجلوس المرء على شاطىء النشوة
وعودة الرجل من القتال إلى موطنه
إن الموت أمامي اليوم
كحنين المرء لرؤية بنيه
وقد أنفق السنين في الأسر »(١٥).

بل لعل حب الوطن والحنين إليه عند المصريين أن يطغى على أواصر القربى ووشائج الدم وصلات الرحم الدنيا ، كما نرى في قصة الأخوين الشقيقين أنوبو وباتا: كانا أخوين لأب واحد وأم واحدة وكان أكبرهما أنوبو – وكانت له زوجة وبيت – يضم إليه شقيقه الأصغر باتا يكفله ويرعاه في بيته . ويمضي الزمان والفتى يشب وينمو ويتفجر جسده بشباب ناضج وقوة عارمة . وتنظر الزوجة إلى سلفها فيعجبها شبابه الفائر فتراوده عن نفسه . ويغضب الفتى لما تردّدت فيه زوجة أخيه التي كانت منه بمنزلة الأم من الخيانة والخبث وينتهرها انتهاراً عنيفاً ، ولكنه يعدها بكتمان ذلك عن أخيه ، غير أنها تخشى من زوجها علمه به فتسبق إلى اتهام الأخ البريء بذنبها ، وإذا الأخ الأكبر يثور ثورة هائلة كأنه الوحش المفترس ويشحذ خنجره ليفتك بأخيه ... واستطاع الأخ أن يبرىء نفسه، ولكنه وجد أن لا سبيل بعد ذلك لأن يساكن أخاه بعد الذي وقع بينهما من الشر والشك ، فأعلن إليه أنه سينفي نفسه في وادي الأرز بلبنان، وأنه سوف ينزع قلبه من صدره فيودعه زهرة من زهور الأرز ، وحدثه أنه ميت إن قطعت الأرزة وسقط القلب في الأرض، وأوصى أخاه الأكبر أن يقبل عليه في لبنان ليعتني به إذا عرف أن مكروهاً أصابه ، وليبحث عن القلب الضائع في تربة لبنان ، وأوصاه أن يجد في البحث ولا يسأم ولو أنفق سبع سنين دأباً ، فإذا عثر عليه وضعه في وعاء من ماء بارد ليرتد

إلى الحياة . وجعل له آية يعرف بها متى ينزل به السوء إذا أرغى كأس الجعة في يده .

وعاد الأخ الأكبر حزيناً كاسف البال على فراق أخيه وما وقع بينهما من الشر فانتقم من زوجته بقتلها ، ومضت به الأيام بائساً وحيداً ، وإذا به يتناول كأساً من جعة يوماً فيرغي إلى حافته وإذا النبيذ حامض في فيه ، فيعرف أنها الساعة التي يفتقد فيها أخاه، فيتناول عصاه ويرحل إلى لبنان.... ويدخل على أخيه فإذا هو مسجى قد فارقته الحياة فيبكيه بكاء شديداً ، ثم يخرج للبحث عن القلب الضائع في تربة لبنان... « فأنفق ثلاثة أعوام كاملة وهو لا يجده ، فلما أقبل عام رابع كان فؤاده قد حن إلى العودة إلى مصر فقال لسوف أرحل إذا كان الغد »(١٦) .

فقد استبد الحنين إلى الوطن بالأخ ، وهو الذي رحل إلى لبنان ليستنقذ أخاه المنفي المظلوم من الموت ، وهو يعلم أن هناك أملاً في إعادته إلى الحياة إذا وجد القلب فيكفر عما رماه به من التهم وما أصابه لذلك من الشقاء، وهو يعلم كذلك أن أخاه قد أوصاه ألا يسأم من البحث سبع سنين ولكنه لم يستطع قبض ذلك الفيض من الشوق إلى الوطن ولما يمض نصف الأجل الذي جعله أخوه موعداً للعثور على القلب ، فقرر الرحيل والتخلي عن أخيه راضياً بموته في الغربة كي يعود إلى أرض الوطن وتربته ، وحسبه ذلك حيث لا زوجة ولا بنـــين .

* * *

ولقد صورت قصة (ونآمون)(١٧) ورحلته إلى فينيقيا حبه لوطنه مما لقي في أسفاره من أجله من المحن والخطوب ، وما كان من بعده عن مصر وشوقه لها وحنينه إليها حتى تهاوى على الشاطىء يبكي وهو ينظر إلى الطيور المهاجرة تمر به مقبلة عليه من مصر ثم عائدة إليها ثم مقبلة ثم عائدة تحمل إليه الحنين وتشعره بمر الأيام وكر العشي كأنما يردد مع الشاعر قوله :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

* * *

وكانت الوطنية كذلك تستهدف كل ما فيه مصلحة الوطن وخلاصه من الأذى، ولقد كان المصري يستشعر الألم العميق في أن يرى وطنه على غير ما يحب له ويشتهي من الرفعة والخير، ولم يكن المواطنون على اختلاف طبقاتهم بالذين يتقاعسون عن أن يسهموا في سبيل خلاص وطنهم بما يراد منهم من الجهد الفعال أو التكاتف الذي يقتضي الكتمان. وقد روي مثال من ذلك في ختام طائفة من قصص[18] رويت على ألسنة الأمراء من أبناء (خوفو). لأبيهم في سمرهم معه، وكان آخر المتحدثين إليه من بنيه ولده (جدف رع)، إذ أخبره عن ساحر يعيش في عهده يستطيع أن يأتي من خوارق الأعمال ما لم يسمع بمثله، ويعرف فضلاً عن ذلك أسرار المغاليق من معبد (جحوتي). وشغف (خوفو) بذلك فاستدعى الساحر الذي أتى له من خوارق الأعمال ما أعجبه وأدخل على قلبه السرور، فلما سأله عن أمر المغاليق كشف له عن سر خطير ارتاع له، ذلك ان امرأة من الشعب سوف تلد في عهده من الاله (رع) بنين ثلاثة يؤول إليهم عرش مصر. وتمضي القصة فتحدث بولادة البنين الثلاثة على أيد الآلهة، وكانت الأم حريصة على كتمان خبر مولدهم خوفاً من بطش فرعون ومكره بهم، وكذلك حرص الناس ممن بلغهم نبأ هذا المولد المقدس على الكتمان. «وكان أن غضبت روجدت (الوالدة) على خادمة لها لأمر من الأمور فعاقبتها بضربها، فقالت الخادمة لمن في البيت من الناس لقد ولدت ثلاثة ملوك، فلأذهبن ولأخبرن جلالة الملك (خوفو) بذلك، وكان أن قصدت (أولاً) أخاً لها لأمها فحدثته بالأمر فقال لها، أتراك أتيت إلي لأشترك في الخيانة ثم تناول جديلة من كتان فأصابها بضربة شديدة». ثم تمضي القصة إلى ختامها فتجعل جزاء الفتاة على ما انتوت من خيانة في حق الوطن بأن أكلها تمساح حين وردت النهر لتتناول شربة من مائه.[19]».

ومع ذلك فقد انحدرت إلينا قطعة هي من عيون الأدب الوطني، بل

من أروع ما وصل إلينا من أدب الوطنية ؛ تلك هي أحاديث (أيبوور) الحكيم [٢٠] ووصفه لحال البلاد أواخر الدولة القديمة وما تردت فيه من ضعف، وفيها نجد الحب العميق والوطنية الصادقة التي تنظر إلى ما ألمّ بالبلاد من محن وخطوب فيحز فيها الألم العنيف والحزن القاتم. وكان (ايبوور) يتحدث إلى مللك شيخ – هو في أكبر الظن (ببي) الثاني الذي لها عن كل شيء فهو لا يعرف من أمر بلاده إلاّ ما تتحدث به بطانته من الكذب والزور، ولكن (ايبوور) يقتحم عليه شيخوخته وسكينته التي أخلد اليها واستنام لها، فيصف له في أسلوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من الاضطراب وما حل بالناس من بؤس وشقاء:

« انظر، لقد شحبت الوجوه ... وأصبح المجرم في كل مكان، وانعدم رجل الأمس، و .. إن النيل ليفيض ولا من يحرث، وكل امرىء يقول: إننا لا ندري ماذا حل بالبلاد... ولقد أصبح العظيم مثقلاً بالأحزان والحقير مفعماً بالأفراح... ويقول أهل المدينة دعنا نطرد الأغنياء من بيننا، إن القذارة في أنحاء البلاد وما من ثوب أبيض في ذلك الزمان .. لقد انقلبت البلاد كأنها عجلة الفخاري.. انظر لقد نسفت الصروح والأساطين والجدران بالحرائق ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً وزحفت الصحراء على البلاد .. لقد بشمت التماسيح بما نهشت، انظر وإن الأحمق ليقول: لو اني عرفت الإله لقدمت له القرابين... لقد أصبحت الوقاحة في الناس جميعاً، وإن الرجل ليقتل أخاه ابن أمه، ولم يعد ابن العظيم يعرف ممن لا أب له ... ألا ليتني رفعت صوتي من قبل، إذن لتجنبت الآلام التي أنا فيها الآن، انظر إن الكبير والصغير ليقول كل منهما: « يا ليتني مت » والأطفال يقولون: « ما كان ينبغي أن نخرج إلى الحياة ». ولم يعد في البلاد رجال » [٢١].

وكذلك شكاوى (خع خير رع سنب) [٢٢] الذي كتب كما وصف قوله من جوامع الكلم وباقات الأحاديث معبراً عما يجد في قلبه من الأسى لما يجري في البلاد من تقلبات البؤس والجور والاضطراب والعدوان:

« إنني أتأمل فيما وقع وفيما مر بالبلاد .. إن الأرض في اضطراب وقد صارت خراباً .. ولقد اسقط الحق وإذا الجور في قاعة المجلس ، ودمرت تعاليم الآلهة وخرقت حدودها ، إن البلاد في بؤس والحزن في كل مكان والمدن والقرى تنوح. إن الناس كذلك جميعاً معتدون... ترى هل لي قلب يعرف كيف يحتمل ، وهل أهدأ إليه حتى أحمله بكلمات البؤس وأسوق إليه آلامي ... لقد حل الكدر اليوم ... والناس جميعاً في صمت منه ... إن البلاد كلها في حال مروع ، لا أحد براء من العدوان ، وكذلك كل الناس يقترفونه ... إن القلب في أسى ما أطول شقائي وأثقله [٢٣] .

ولقد كان لما ذاقت مصر من المحن والآلام السياسية أن انتشر نوع جديد من الأدب هو أدب الكهانات ، إذ تشيع في الناس قصص ، مرصعة بحكم طابعها الغيبي وصوغها الأدبي بالاستعارات والكنايات ، تبشر بظهور المخلص الذي يقبل لدفع الضر وكشف الأذى عن الوطن الحبيب ، ويملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً . وكانت بشائر الدولة الوسطى وعودة البلاد إلى الوحدة بعد الانقسام قد ذاعت في الناس على لسان كاهن يدعى نفرتي [٢٤] رووا تاريخه الى أيام عاهل الأسرة الرابعة ومؤسسها (سنفرو) . فقد روي أن الملك طلب إلى خاصته رجلاً يحدثه « بالكلم البليغ والقول المختار » فجاؤوه بالكاهن القارىء (نفرتي) الذي سأل الملك قائلاً « عما حدث أيها العاهل أو عما سوف يحدث ؟ » قال .. بل عما سوف يحدث. أما ما قال القارىء (نفرتي) حينما استغرق في التفكير فيما سوف يحدث في الأرض مستحضراً حال الشرق حيث يهيم الاسيويون بقوى أسلحتهم وتتحرق أفئدتهم على المجتمعين للحصاد فهو : « ... انهض قلبي ونح على هذه الأرض ، هناك أشياء يقول الناس عنها إنها مروعة... لقد فسدت الأرض فلا من يعنى بها ولا من يتكلم ، أيها الباكي كيف تكون هذه الأرض . لقد احتجبت الشمس فهي لا تسطع في عيون الناس ، ولن يستطيع أحد العيش إذ تحتجب بالغيوم إنني قائل ما هو أمامي ... لقد غاضت أنهار مصر حيث يخوض الناس الماء بالقدم وتهب ريح

الشمال على ريح الجنوب وسوف يولد طائر غريب في مناقع الدلتا ... لقد فسدت حقاً تلك الأمور الطيبة واختفى كل خير وهوت الأرض من سوء طعام البدو الذين هم في أنحاء الأرض ، الأعداء في الشرق ويهبط الأسيويون مصر .. ولن يستمع مدافع... وسيدخل الناس إلى القــلاع ... وتشرب وحوش الصحراء من أنهار مصر وتكون على هواها على ضفافها لانعدام من يدفعها ... إنني أريك الأرض رأساً على عقب وما لم يحدث قد حدث ، فيحمل الناس سلاح الحرب فتعيش الأرض في اضطراب ... ويضحكون ضحكات الألم ولا يعنى المرء إلاّ بنفسه ، إن الرجل ليقبع في عقر داره مولياً ظهره لرجل يقتل رجلاً ، إنني أريك الابن عدواً والأخ عدواً والرجل يقتل أباه ... إن الناس يعاملون المواطنين بالكراهية ليسكتوا كل فم ينطق ، فإذا ردت كلمة خرجت ذراع بعصا ... فإذا القول في القلب كالنار حيث لا تحتمل كلمة من فم ... لقد نقصت الأرض وزاد حكامها ... وابتعد (رع) عن الناس ... إنني أريك الأسفل هو الأعلى ... والناس يعيشون في الجبانة ..... ثم يأتي ملك من الجنوب اسمه أميني المنتصر ابن امرأة من النوبة وقد ولد في الصعيد، سوف يأخذ التاج الأبيض ويلبس التاج الأحمر وسيرضي الربين بما يريدان ... أبشروا أيها الناس في زمانه إن ابن الانسان سوف يصنع اسمه أبداً وأزلاً . أما الميالون إلى الشر والمتآمرون بالثورة فسوف يكتمون أحاديثهم خوفاً منه . وسوف يسقط الأسيويون بسيفه ويسقط التحنو عند لهيبه والثوار أمام عضبته.. وسوف يعود الحق إلى نصابه... »

كل ذلك يدل على تعلق المصريين بوطنهم وحرصهم على خلاصه وسلامته وتقديرهم لولي الأمر الرشيد .

وكذلك كانت وطنية الملوك فيما حملوا من أمانة الحكم وصالح الرعية ، فنقرأ للملك (الاهناسي اختوى) من عصر الفترة الأولى وهو يبصّر ولده وولي عهده (مريكارع) [٢٥] بأصول الحكم مما يجب عليه من حسن معاملة الناس وإقامة العدل مع الرحمة فيهم وذلك تقديراً لما تؤتيه تلك السياسة من طيب النتائج

وما يرتد على البلاد من ذلك من خير حيث يقول :

« احذر أن تعاقب ظلماً ، ولا تقتل فلن يفيدك ذلك ، بل عاقب بالضرب والسجن (ليس غير) وبذلك تزدهر البلاد . »

وربما لحق بذلك من حيث حرصه على ازدهار البلاد باقامة العدل ما قال بعد ذلك « لا تفرق بين ابن النبيل وذي المولد المتواضع ، واتخذ لنفسك الرجل لكفايته » .

* * *

ولقد تجلت وطنية المصريين كذلك في ميادين القتال ، حيث كانوا يبذلون من جهودهم ونفوسهم في سبيل بلادهم ما كان مثالاً للشجاعة والاقـدام والاخلاص للوطن وكان ملهماً كذلك لبعض ما أنشؤوا من النثر والشعر ، إذ انحدرت إلينا منذ الدولة القديمة من أخبار المواقع قطع أشاد فيها القواد بما أحرزوا من النصر أقدمها ما سجل (أوني) وزير الملك (پيپي) الثاني من أخبار حروبه[٢٦] التي قادها في فلسطين ، حيث تأثرت نفس الكاتب القديم في بعض فقراتها فساقها شعراً كما نسوق ترجمتها هنا كذلك شعراً :

وعاد الجيش هذا في سلام ودمر أرض سكان الرمال
وعاد الجيش هذا في سلام وسوّى أرض سكان الرمال
وعاد الجيش هذا في سلام وقد دكّ القرى ذات الحصون
وعاد الجيش هذا في سلام بما حصدوه من كرم وتين
وعاد الجيش هذا في سلام وبالنار ابتـلى كل القصور
وعاد الجيش هذا في سلام وقد قتل المئين من الالوف
وعاد الجيش هذا في سلام وكم أسراه من جم غفير
فأجزل لي جلالته عليـه ثناء فاق في كل الأمور

كما روى (سبك خو) وهو من رجال (ستوسرت) الثالث أحاديث حروبه التي اشترك فيها تحت لواء مليكه وما كان من شجاعته في احدى مواقعه

في بعض بقاع فلسطين تسمى سكمم ــ ولعلها شكيم التي ذكرت في التوراة ــ قال : « واستهل جلالته بابتداء رائع ... أما سكمم فقد سقطت مع قبائل رتنو الخاسئة على حين كنت أعمل في المؤخرة ، ثم التحم الجنود بعضهم ببعض كي يحاربوا الأسيويين فضربت أسيوياً وأمرت جنديين بأخذ يده دون أن أغادر المعركة ، وظل وجهي يتقدم ولم أول الأدبار بين يدي أسيوي وحياة سنوسرت إني لأقول الحق »(٢٧) .

ولقد كان لاحتلال الهكسوس ثم ما ساد مصر يومئذ من روح الكفاح أثره فيما أنتج المصريون من الأدب ، إذ دخل الأدب الميدان يعبىء المشاعر ويذكي الحماسة ، وانتشرت أولاً القصص التي تصور ظلم الهكسوس وافتئاتهم وتستنكر بقاءهم حتى هب المصريون فانقضوا على العداة الغاصبين فأجلوهم عن البلاد وطهروا منهم الأرض . من ذلك قصة كان التلاميذ أيام الدولة الحديثة يدرسونها كغيرها إملاء ونسخاً (٢٨) ولم يحفظ لنا منها سوى جزء يسير إذ

« حدث أن كانت أرض مصر في شقاء ، ولم يكن لها سيد ولا ملك إذ ذاك ، وحدث كذلك أن الملك (سقنزع) كان حاكماً للمدينة الجنوبية . وكان الشقاء في مدينة الأسيويين حيث كان الأمير ابيبي في هوان وكان قد سيطر على الأرض كلها بخراجها وعلى الشمال كذلك بكل شيء طيب من الأرض الحبيبة . وكان الملك ابيبي قد اتخذ لنفسه (سوتخ) رباً ولم يخضع لرب أياً كان في الأرض إلا (سوتخ) ... أما (ابيبي) فقد انتوى أن يبعث برسالة مسيئة إلى الملك (سقنزع) ... فلما وصل رسول (ابيبي) إلى أمير المدينة الجنوبية ... قال له الرسول إن الملك (ابيبي) يرسل إليك قائلاً : عطل بركة أفراس النهر التي في شرقي المدينة فإنها تذود (عنه) النوم بالنهار والليل ، وإن أصواتها في آذان المدينة ، وحار أمير المدينة الجنوبية طويلاً فلم يعرف كيف يرد رسالة مبعوث الملك « ابيبي » .

ولم يكن هذا الشقاء الذي كانت تعاني منه مصر يومئذ وأبرزه كاتب

القصة سوى حكم الأجنبي الذي تسلط عليها واتخذ عاصمته في (هران) شرقي الدلتا حيث أنكر آلهتها واحتاز خراجها وكل شيء طيب فيها كما قال. ولكن مصر كما عبر عنها الكاتب في صدر كلامه لم تعترف به فكانت مع ذلك بغير سيد ولا ملك؛ ولم يلهها ما كانت تتمتع به يومئذ من رخاء اقتصادي عن استقلالها وحريتها فقام (سقنزع) في المدينة الجنوبية أميراً ينزع إلى الاستقلال الذي أحس به أبيبي فأرسل إليه مناوشاً مخاشناً. وما ندري لعل صياح البرانق الذي حرمه النوم أن يكون رمزاً لما داخله من قلق عميق لصيحة الاستقلال التي علت واشتدت هناك.

ثم تتصل القصة عن (سقنزع) أنه قال لمبعوث الملك أبيبي: لسوف يسمع سيدك شيئاً عن هذه البحيرة... ثم أمر باستدعاء كبار موظفيه وكذلك رؤساء عسكره فأعاد عليهم الرسالة بأسرها... فصمتوا جميعاً... ولم يعرفوا كيف يجيبون طيباً أو سيئاً.

ومهما يكن من شيء، فقد شبت حرب التحرير بقيادة (سقنزع) على الهكسوس، حيث سقط العاهل المصري في حومة الوغى شهيد الاستقلال، وما زال جثمانه تحت عيوننا اليوم في متحف القاهرة بما فيه من دلائل الكفاح والتضحية حيث سقط على أثر ضربات فأس شجت رأسه، وخلفه ولده (كاموسي) الذي حمل راية الجهاد من بعده. ولقد تجلت وطنية المصريين الصادقة فيما حفظ من أحاديث (كاموسي) الذي عزم على مواصلة القتال حتى يحرز النصر أو يهلك دونه قال:

« هل لي أن أعرف فيم قوتي وفي هوارة أمير وفي النوبة آخر. أأجلس لصق أسيوي وزنجي وتحت كل امرىء شريحة من مصر ويشركني الأرض فلا أجاوز (منف)... انظروا إنه على الأشمونين فما يستقر أحد حتى تبتزه أتاوات الاسيويين. لسوف أصارعه وأبقر بطنه. إن أمنيتي أن أنقذ مصر وأقمع الأسيويين ». فقال كبار من مجلسه: أجل ها هو مد الأسيويين حتى

القوصية وقد أخرجوا (لنا) ألسنتهم أجمعين ولكننا هانئون بما تحتنا من مصر، فالفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية، وأحسن حقولهم تحرث من أجلنا وأبقارنا في مناقع البردي، والحبوب ترسل لخنازيرنا ولن تؤخذ منا أبقارنا ... وإذا أقبل معتدٍ قمنا ضده »[٢٩].

وأكبر الظن أن الكاتب إنما ساق هذا الحديث بذلك الأسلوب الذي يعبر عن رأيين أو مذهبين يتساجلان ليجعل منه درساً للناس وليقضي على ما عسى أن يخالج النفوس من التردد وسقوط الهمة ويبطل ما قد يوسوس في الصدور من حجج التقاعس أو تعلات القعود. وقد عبر بهذا الحديث عن مذهبين : مذهب العزة والكرامة يعبر عنه الملك، فهو يرفض بقاء الدخيل ويرفض معه كل مهادنة وكل سلام— ما دام على استعداد — ويكره أن يشتري عرشه وثروة تتدفق عليه وعلى رجاله باستقلال بلاده وعزتها، ومذهب آخر يرى مهادنة الاحتلال ولو إلى حين، فأصحابه سعداء بالتعايش السلمي مع الهكسوس ولا يرون بأساً من سلطان اسمي لهم لا يحسون حيث هم بوطأته، فهم كما قالوا يتمتعون بأملاكهم فلا حاجة بهم إلى المغامرة بمواصلة الحرب وخوض غمارها. ولكن الملك وسائر مستشاريه وأهل البلاد قد رأوا غير هذا الرأي، فان استقلال الوطن مطلب ينبغي ألا يعرف فيه المواطن هوادة ولا ليناً، ولا يقبل فيه المساومة أو ينتحل في القعود عنه المعاذير فكان لذلك رأي كاموسي في أصحاب مذهب التعايش في قوله : « لقد ساؤوا في نفس جلالته »[٣٠].

ولقد صدق الناس مليكهم ما حدس فيهم من العزم القوي والوطنية الصادقة وكانت ثقته عظيمة في استعداده وفيما هو مقدم عليه فأعلن أنه سوف يقاتل الهكسوس « حتى يتحقق النجاح » وعندئذ سوف تعلن البلاد كلها وتنادي « في طيبة كاموسي حامي مصر »[٣١]. فكان أن شن على الهكسوس حرباً لا هوادة فيها ومن ورائه جيش كالأسود من مواطنين مؤمنين بقضية بلادهم لم يدخروا وسعاً ولا مالاً في سبيله، ولقد خلدت أخبار تلك المعارك على لسان (كاموسي) حيث يقول : « لقد هبطت النيل، لقوتي، لطرد الأسيويين

بأمر (آمون) ذي الرأي السديد، وكان جيشي القوي أمامي كأنه جذوة من نار وكانت فصائل من البجاة بأعلى القمرات (للسفن) للكشف عن الأسيويين وتدمير مواقعهم(٣٢) . وكان الشرق والغرب يفيض علينا الدهن والنبيذ ، والجيش يتلقى الطعام من كل مكان. وقد دفعت كتيبة قوية من البجاة على على حين توليت حصار (تتي بن پيپي) في (نفروسي) حتى لا أفلته ... وقد كان جعل (نفروسي) وكراً للأسيويين ..... وفي الصباح انقضضت عليه كالصقر فما حل الافطار حتى دحرته ، فدمرت أسواره وقتلت قومه وأنزلت زوجه إلى ضفة النهر ، أما جنودي فكانوا كالأسد في فرائسها ، وقد غنموا العبيد والقطعان واللبن والدهن والعسل ، فاقتسموا مالهم وقلوبهم منشرحة »(٣٣) ...

ولعل من أشهر من كتب لنا عن جهوده وكشف عن وطنيته من جنود مصر القديمة(يوعحموس بن ايانا)(٣٤) ، الذي روى ما شهد من وقائع وما أبلى في معارك حرب التحرير بنوع خاص ، وذلك تحت لواء مليكه (يوعحموس) الأول الذي حمل راية الجهاد من بعد سلفه (كاموسي) وانعقد له لواء النصر على الهكسوس فأجلاهم عن مصر وتعقبهم في فلسطين والرجل فيما ساق من حديث قد كشف في عبارة بليغة ونغمة حلوة عن ايمان عميق ببلاده ورفيع خصالها من عرفان بالبار من بنيها واعزاز بمن أحسن البلاء فيهم ، فيقول في صدر حديثه : « إن شهرة الشجاع فيما أحرز لن تضيع في هذه البلاد أبداً » فإذا أشار إلى الجيش أو تحدث عنه لم ينسبه إلاّ إلى قومه ومواطنيه فيقول: «كنت على رأس « **قواتنا** » فقاتلت قتالاً يفوق العقول» وليس أبلغ من قوله **قواتنا** تعبيراً عن الوطنية واستشعاراً بمكانة الجيش من الشعب ولا تأثيراً في النفس على ايجازها ، فالقوات له وللشعب وليست للملك وحده ليس غير(٣٥) .

وهكذا سادت روح الحرب والمغامرة مصر منذ حرب التحرير ضد الهكسوس ، وأقبل الشباب على الجيش ينخرطون فيه ويندفعون في معاركه ،

يفخرون بما شهدوا من مواقع وما بذلوا من ضروب الشجاعة والاقدام تحت لواء الملك ، وبذلك اتسعب فرص الانشاء الأدبي ، وأقبل الناس على سماع قصص المواقع والمغامرات وقصائد الحماسة والبذل .

ومما روي من وحي الحروب قصة (٣٦) لعلها كانت نموذجاً ووحياً لما تردد فيما بعد في اليونان من حديث حصان (طروادة) . وقد تداعت أحداث تلك القصة المصرية مع بطل من قواد (تحتمس) الثالث يدعى (تحوتي) في فلسطين والحرب دائرة من حول يافا حيث كان يحاصرها بطل القصة وما زال الملك في عاصمته لما يخرج بعد للقتال . وظاهر أن الحصار قد شق وطال ، فكان أن رأى القائد المصري أن يحتال ويصطنع شيئاً من خدعة في الاستيلاء عليهـــا ، فدعا أمير يافا إلى لقاء بينهما حيث أحسن استقباله وسخا له في الشراب حتى ثمل ، وتحدث إليه أنه قرر الانضمام إليه والانتصار له ، وزعم له أنه سيلجأ إليه مع زوجه وبنيه ليعيشوا عنده في يافا ، واستطاع بذلك أن يعد تحت سمعه وبصره للدخول إلى المدينة جياداً يقودها مائتا جندي ، ولكنها كانت تحمل خمسمائة آخرين مختبئين في جوالق ومعهم ما يحتاجون إليه من أسلحة وعتاد ، ثم ضرب أمير يافا ضربة أفقدته وعيه ، وأمر قائد عجلته بالاسراع إلى زوجته يبشرها بعودة زوجها الأمير ومعه القائد المصري لاجئاً . « ففتحت أبواب المدينة المغلقة أمام الجنود . وهكذا دخلوا المدينة فأطلقوا زملاءهم المختبئين فقبضوا على رجال المدينة ... وبذلك استولت يد الملك القوية على المدينة ، وفي المساء أرسل (تحوتي) إلى مصر مخاطباً (تحتمس) بقوله: « أبشر فقد سلمك أبوك (أمون) الطيب أمير يافا وكل رجاله ومدينته كذلك » .

ولقد كان في حروب (رمسيس) الثاني مع الحثيين وما بذل في معركة قادش من الجهاد ما قدح قريحة الشعراء والكتاب في ذلك الزمان ، فصوروا محنة رمسيس حيث أحاطت به الآلاف من عجلات الاعداء ينوشونه من كل مكان ، وحيث أدرك ان عليه في تلك اللحظة يقوم مجد أمة وشرف دولة ومستقبل شعب ، فظل في نفر قليل يقاتل قتال المستميت معاتباً ربه داعياً له

مستنجداً به فازعاً إليه حتى لحقت به جيوشه لنصرته آخر الأمر ، وذلك في ملحمة طويلة بديعة سرت بين الناس ونسبت إلى كاتبها (بنتاور)[٣٧] .

ثم كان عهد ولده (مرنپتاح) وكان حافلاً بالمواقع العنيفة التي أبلى فيها المصريون أحسن البلاء حتى خلصوا البلاد من خطر ماحق باستخلاصهم النصر على أعدائهم الذين انقضوا على مصر انقضاض الوحش على الفريسة . وكان من أروع ما بقي لنا يومئذ أنشودة النصر التي سجلت على ما عرف باسم لوح اسرائيل[٣٨] لورود اسم اسرائيل فيه لأول مرة في التاريخ ، وفيها يحمد الناس ربهم ومليكهم أن خلص مصر وخلصهم من أعدائهم ومتعهم بالسلام والأمن ، ووضع عن كاهلهم عبئاً كأنه جبل من نحاس :

الشمس قشعت غيماً كان على مصر
وجعلت مصر ترى ضياء الشمس
وأزاحت جبلاً من نحاس عن أعناق الناس
فمنحت الأنفاس للناس التي كان في تضييق
....
الفرح العظيم قام بمصر
والهتاف انطلق في مدائن مصر
....
يتحدثون بالنصر الذي أحرزه (مرنپتاح) الراضي بالحق
ما أحبه ! (الحاكم المنتصر
وما أعظمه ملكاً بين الأرباب
وما أحسن حظه سيد الأمر
....
ما أحلى الجلوس والحديث
والمشي والتجوال في الطرق بغير خوف في قلوب الناس
لقد تركت القلاع لشأنها

والآبار فتحت للرسل
ومعاقل القلاع هادئة في الشمس
حتى يستيقظ حراسها
والبجاة نائمون ممددون
والبناو والتوكتد في الحقول حيث يريدون
وقطعان الحقول تركت بغير راع
وتعبر لـــج النهر
ولا صيحة بليل تنادي أن قف
هناك آت بلغة أجنبية
بل يذهب المرء ويجيء بالغناء
ولا صيحة للناس كما كان في الأحزان
وعمرت المدائن من جديد
وحارث حصيده آكله
لقد ارتد (رع) إلى مصر.

ولئن كان النشيد تمجيداً للملك وما أحرز من نصر على أعداء مصر، فان فيه احساس الشعب وفرحته بذلك النصر، ولم يكن مناط النشيد الاشادة بشجاعته بقدر ما هو نصر للبلاد وخلاص لها ولشعبها مما قضته وقضوه في استعداد وضيق وقلق يشيع فيهم. بل نكاد نحس في تلك الأنشودة روح الشعر المرسل الحديث وما يصور من ظواهر صغيرة كناية عما شمل الناس من الأمن والاستقرار والاطمئنان للمستقبل حيث يأكل حارث حصيده.

بل لقد جعل النشيد للحب الذي استحقه الملك علة يقوم عليها هي النصر الذي خلص الناس من قلق وخوف حرمهم حياتهم السوية الميسرة من جلوس وحديث وتجوال. وكذلك فالنشيد هنا يستبدل بلفظ الملك لفظ الحاكم وما فيه في المصرية من دلالة الراعي المسؤول، وذلك فضلاً عن وصفه بسيد الأمم، كأنما أراد كاتبه تدقيق النصر للناس وما انتهوا إليه من خير بقدر توثيقه

للملك وما يكتسب من مجد وفخار .

ولقد كان المصري يعتز بوطنه ويفخر به ويدرك مكانته من سائر الشعوب من حوله ، ويعتز بما يصدر إليها من الحضارة والفن والعلم والثقافة ، ويدرك امتيازه بذلك عليها حيث بلغ منها شأواً بعيداً لم تبلغ إليه، وكان يقلقه أن تتعرض حضارته تلك للدمار حيث تتعرض ليد أجنبي جاهل لا يحفظها ، وفي ذلك قالت (حاتشبسوت) بعد أن تولت حكم مصر وأصلحت ما دمر الهكسوس :

« استمعوا أيها النبلاء والجماهير مهما كثرت . لقد فعلت ذلك بمشورة قلبي فلم أنم تغافلاً ، بل لقد أصلحت الخراب وأقمت ما كان حطاماً منذ الزمان حين كان الأسيويون في أرض الشمال في هوان والمشردون بينهم يدمرون ما كان صنع . لقد حكموا بغير (رع) فلم يعمل بالأمر الإلهي حتى عهد جلالتي . لقد قمت على عروش (رع) ... ولقد أبعدت من يكرههم الأرباب ، وأزالت الأرض أقدامهم (آثارهم) »[٣٩] .

فلقد كان المصري يعلم أن بلاده أستاذة ما حولها من الشعوب بل يفخر بذلك وقد عبر عن ذلك فأحسن التعبير في قصة (ونامون)[٤٠] التي ذكرنا من قبل وقد كان رحل إلى جبيل لجلب خشب الأرز لبناء سفينة (أمون) المقدسة . فقد روي عن أمير جبيل رغم جفوته وسوء لقائه للكاهن المصري أنه قال عن مصر : « لقد خلق (أمون) البلاد جميعاً ، خلقها ولكنه خلق قبل كل شيء مصر التي أقبلت منها ، وهي التي خرجت منها الفنون لتصل إلى بلادي » .

لقد كان في ذلك اعتراف بآلهة مصر وفضلها ، واعتراف بأن مصر كانت أول ما خلق الله من البلاد ثم مصدراً للثقافة والفن ؛ وسواء روى مؤلف القصة واقعة صحيحة عن أمير جبيل أم أنه أنطقه بتلك الكلمات دعاية وتبشيراً ، فان القصة مع ذلك إنما تبرز ما وقر في نفوس المصريين من استشعارهم فضل بلادهم الذي اعترف به الاغريق على كل حال ، فلها من العراقة السبق

ومن الحضارة الخلق والابتكار وتعليم الجيران من البلدان والأقطار .

ومثل تلك القصة في هذا السبيل قصة كتبت بين أواخر حكم الفرس مصر وأوائل العصر اليوناني فيها[٤١] ، وهي من عصور المحن السياسية التي كان المصريون فيها لا يفتؤون يفزعون إلى تاريخهم يحيونه وفضلهم يتذاكرونه ، فقد روي يومئذ أن رمسيس الثاني عاهل مصر العظيم كان قد شخص إلى بلاد النهرين فتلقاه أمراؤها مرحبين راكعين بين يديه حاملين إليه الطرف من هدايا الفضة والذهب واللازورد والزبرجد ومن ألوان الخشب كل حلو وفاخر . وتقدم إليه أمير بختن بهديته وكان على رأسها ابنته التي حسنت في قلب رمسيس فتزوجها وخلع عليها اسم (نفرورع) . ثم وقع بعد سنين أن ارسل أمير بختن إلى زوج إبنته رمسيس رسولاً ، فلما أدخل عليه بما يحمل من هدايا حياه وقبل الأرض بين يديه ثم قال: إنما أقبلت يا مولاي من أجل بنت رشت أخت جلالة الملك ، فقد تغلغل الداء في جوارحها ، فهل لجلالتكم أن ترسلوا حكيماً يراها . وأرسل فرعون (تحوت‌م‌حب) إلى (بختن) حيث وجد الأميرة تحت سلطان روح لا قبل له بها وان الاله (خونسو) خليق بشفائها ، فأرسل أمير بختن يطلب تمثاله من رمسيس فأرسله حيث قدمت إليه القرابين وشفيت الأميرة مما أصابها ، فعم الفرح البلاد وأسرّ الأمير في نفسه استبقاء تمثال الاله الذي آمن به ايماناً عميقاً .

وفضلاً عن ذلك ، فقد أدرك المصريون ما للمسرح من قيمة ومنزلة ومنزلة في أذهان الناس . غير أنهم لجؤوا في ظل احتلال الفرس إلى التلميح والرمز في اثارة النفوس على المحتل واستنزال اللعنة على قمبيز ملك الفرس ، وكانوا قد نسبوا إليه بوائق ومظالم كثيرة ولذلك فقد أخرجوا مسرحية استخفت من تحت مسوح الدين واتخذت من شخوص الآلهة أبطالاً ، تلك هي مسرحية عودة اله الشر (ست)[٤٢] ، ولم تكن في واقع أمرها سوى مسرحية سياسية عاصفة لاذعة لا سبيل لأية رقابة في العالم أن تسمح بمثلها في أي بلد محتل في عصرنا هذا الحديث ، فلم يكن (ست) في المسرحية سوى

الغازي الأجنبي الذي لم يقنع بما منحته الآلهة من أرض فاحتل مصر واستولى عنوة على عرش (حور) . ذلكم هم الفرس الذين دخلو مصر مرتين عام ٥٢٥ ق . م و ٣٣٠ ق . م . وقد كانت صيحات الممثلين في نهاية الفصل لأول من المسرحية هي : « إننا نطردك ذليلاً إلى بلاد آسية ، فمصر تدين لحور وتخرج عليك » ، فاذا علمنا أن أسطورة (حور) و (ست) في أصولها لم تجعل قط من آسية موطناً ولا مقاماً لمملكة اله الشر (ست) عرفنا كيف كان المصريون يعدلون من أساطيرهم في خدمة هذا الهدف السياسي الوطني النبيل .

ولعلنا لا نبالغ حين ننفي عن المصريين التعصب وننسب إليهم الفلسفة أو نظرة فيها شيء من الفكر والحكمة أو ننسب إليهم الفطرة السليمة وهـذا أضعف الايمان . ذلك أن المصري لم يكن متعصباً لجنس ولا لون ، وإنما كانت تعنيه الثقافة والحضارة وتعنيه الحياة في تلك الأرض التي أحبها وظل يعتبرها موطن كل شيء أو أم الدنيا . كان المصري هو كل من سكن مصر وتحدث بلغتها واتخذ عاداتها وتزيا بزيها ، وكان الأجنبي يستطيع ان يكون مصرياً إذا اتخذ لغة مصر وعاداتها ولبوسها واندمج في أهلها ، ولقد أتى على مصر أفواج من الزنوج والأسيويين والليبيين فلم يلقوا فيها إلا خيراً ، ولقيت آلهتهم كذلك التجلة والتبجيل فعبد المصريون بعل وعثاث وعشتار[٤٣] وسووها بآلهتهم ، بل بل لقد بلغ بعض هؤلاء الوافدين أرفع المناصب في الدولة ، فبلغ شيشنق الليبي عرش مصر فرعوناً لا يعرف لنفسه وطناً غيرها ، وذلك في أعقاب استقرار أجداده بمصر واندماجهم في أهلها ودخولهم خدمة ملوكها .

أما إذا احتفظ الأجانب بأجنبيتهم فذلك ما يؤلم المصري ويؤزه ، فاذا به يشكو تدفقهم على بلاده في فترات المحن الوطنية وفي عصور الضعف السياسي كما تقدم بنا في أكثر من موضع في هذا المقال . بل لعل المصريين ينكرون صفة المصرية عن المصري الخالص إذا هجر بلاده وخلع عاداتها ولو كان من بيت الامارة وسليل الأسرة المالكة ، فان الامراء من بيت (ستوسرت) حين استقبلوا (ساتوهي) بعد غربته التي أنفقها في الشام قد وصفوه بأنه « جاء

أسيوياً في خليقة بدوي »(٤٤).

ولقد كان المصري يشعر وهو في تلك الواحة الخضراء التي تكتنف النيل أن الحضارة في مصر والبداوة في غيرها. حيث عبر عن ذلك في قصة فيها كثير من الاشارة والرمز(٤٥). :

« يروى أن الإله الشمس (رع) كان يحيا في الأرض (مصر) وكانت ابنته (تفنوت) تحيـا في صحراوات النوبة العليـا في صورة لبؤة ضارية، تجوب الأودية وعيناها تلفظان شرراً وأنفاسها تزفر لهباً وقلبها يتقد حقداً. وكانت تتعقب أعداءها فتسحقهم وتنهش لحومهم وتلغ في دمائهم. ولكن (رع) قد كان يحب لابنته أن تعود إليه وتعيش إلى جانبه لأنها ابنته التي يحبهـا، ولكي تدفع عنه أعداءه وتقضي عليهم. لذلك فقد أرسل إليها ولده (شو) مع إله الحكمة (تحوت) ليغريها بحديثه وسحر ألفاظه .. فطفق يهدىء من روعهـا بأحاديثه العذبة، فحدثها عما ينبغي أن ترى من الأعاجيب في بلاد أبيها، ووصف لها النيل والحقول الخضر وقراها الجميلة ومدنها البديعة، حيث تنشأ لها المعابد حين تعود، وتحدث إليها بأنها لن تضطر بعد ذلك إلى الغارة في سبيل طعامها، فسوف تقدم إليها الوعول والغزلان في كل يوم، ولن تنقطع الموسيقى والرقص بين يديها. ولم يكتف تحوت بمجرد الأحاديث، فقدم لها كأساً من نبيذ وأمر بالغزلان فقربت إليها والموسيقى فعزفت بين يديها، على حين ظل يتلو عزائمه السحرية كما طفق أخوها يغريها بالعـودة.

وتأثرت (تفنوت) بذلك كله فسكن غضبها ورضيت بالرحيل إلى مصر فعانقها (شو) جذلان فرحاً، وتقدموا في موكب تملؤه الفرحة في صحبة المغنين من أهل النوبة وتناول (شو) طنبوراً طفق يعزف عليه راقصاً بين يدي أخته، فلما انتهى الموكب إلى جزيرة (فيلا) نزلت (تفنوت) مـن الصحراء في صورة غزال ثم طفقت تنظر إلى عجائب مصر، ولما تطهرت

بمياه جزيرة (البيجة) المقدسة إذا بها تتحول فتاة رائعة الحسن فارعة القوام تفيض عيناها نوراً ووجهها بشراً ، فلما رآها أبوها عانقها محبوراً وتلقاهـا الآلهة في كل مكان ... ووجدت في كل معبد مكاناً لها إلى جانب أخيها الذي اتخذها لنفسه زوجاً .

فلقد ظلت (تفنوت) ابنة الاله على وحشيتها وصورتها الضارية طالما عاشت بعيدة عن مصر ، فلما هبطت بها اكتسبت دماثة الخلق ورقة الطبع فتحولت إلى صورة الغزال أولاً ثم انتقلت إلى صورة البشر أو هيئة « الناس » — وكان المصريـون يخصون أنفسهم بلفظ الناس — حيث عاشت في مصر واستقرت في الوطن المتحضر الحبيب .

الاختصارات

ANET = Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Edited by Pritchard

الحواشي والمراجع

1 A. Bayoumi, Autour du champs des Souchets et du champ des offrandes (Service des Antiquités de l'Egypte, Le Caire 1940) p. 1 ff.

ومن المناظر المألوفة في الآثار المصرية منظر الملك أو الشريف وهو يحرث الأرض الآخرة كمنظر سن نجم في مقبرته .

2 K. Sethe, Die altaegyptische Pyramidentexte (Leipzig 1908) §.

3 N. Golenischeff, Les Papyrus hieratiques no. 1115, 1116 A. et 116 B. de l'Ermitage Imperiale à St. Petersburg (St. Petersburg 1913) Ph. IX-XIV l. 91-94., Gardiner, New Literary Works from Ancient Egypt JEA I (1914) p. 30; ANET p. 416; Erman, Literature p. 80-81.

4 A. H. Gardiner, Egyptian Hieratic Tests Series I Part I (Leipzig 1911) pp. 11-15; ANET p. 477; Erman, Literature p. 228.

5 J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago 1961) Vol. II § 73.

6 G. Maspers, Hymne au Nil (IFAO Bibliothèques d'étude V, Le Caire 1912, Erman, Literature p. 146, ANET p. 372.

7 Erman, Literature 288-291; ANET 370-371; N. de G. Davies, The Rock Tombs of El-Amarna VI (London 1908) Pla. XXVII.

8 I.E.S. Edwards, Hicroglyphic Tests from Egyptian Stelae in the British Museum VIII (London 1939) p. 22-25 Pl. XX. A. Vorille, Bulletin de IFAO XLI (1942) p. 25-30; ANET p. 367-368.

9 See note 7 above.

10 Alan H. Gardiner, Die Erzöhlung des Sinuhe und die Histengeschechte in Hieratische Papyres Berlin V (Herausgegchen Von Adolf Erman, Leipzig 1909) B. 1-7., G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949) p. 7.

11 op. cit. B 148-156.

12 op. cit. B. 156-163.

13 op. cit. B. 185-201.

14 Pap. Ermitage 1115 l. 133-136, 167-169 (see note 3 above); Erman, Literature p. 33-34.

15 R.O. Faulkner, The Man who was tired of life, JEA p. 21-40; A. Erman, Gesprâch cines Lekensmünden mit seina seele (Berlin 1896); Erman, Literature p. 86.

16 G. Möller, Hieratische Lesestucke II (Leipzig 1927) p. 1-20; Lehebore, op. cit. p. 153; A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories. (Bibliotheca Aegyptiaca I, Bruxelles 1932 p. 23 1 13,6.

17 Gardiner, op. cit. p. 61; Erman, Literature p. 174 ff.

18 Lefebvre, op. cit. p. 70 ff; Erman, Literature p. 36 ff.

19 Lefebvre, op. cit. p. 90; Erman, Literature p 46-47.

20 C. Leemans, Monument

في بردية محفوظة الآن بمتحف ليدن

Egyptiens du Musé d'antiquité des Pays-Bas à Leide (Leyden 1841-82) II Pls CV-CXIII.

21 A.H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage (Leipzig 1909) Erman, Literature p. 92-108; ANET p. 441 ff.

22 Gardiner, op. cit. pp. 95 ff.

23 A. H. Gardiner, New Literary Notes from Ancient Egypt JEA. I (1914) p. 102-103, Erman, Literature 108-110.

24 Erman, op. cit. p. 110-115

وكان يقرأ من قبل تفررحو

25 W. Gobnischacff, op. cit. Pls. IX-XIV; ANET p. 414 ff.; Gardiner, JEA I p. 20-36, Erman, op. cit 75-84

26 Tresson, l'inscription d'Ouni (Bibliotheque d'Etudes IFAO VIII, le Caire 1949); K. Sethe, Vokunden des Alten Reiches (Leipzig 1932) p. 98-110; J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago 1961) I § 306-315; ANET 228.

27 K. Setle, Aegyptische Lesestücke (2nd Ed. Leipzig 1928) pp. 82-83; Breasted, op. cit. I § 676-687; ANET p. 230.

28 Gardiner, Late Egyptian Stories pp. 85-89; Erman, Literature, pp. 85-89, Eiman, op. cit. 165-67; JEA V (1918) pp. 45-45.

29 A. H. Gardiner, The Defeat of the Hyksos by Kamose: The Carnarvon Tablet No. 1. JEA III (1916) pp. 95-110, plo XII, XIII; Erman, op. cit. pp. 52-54., ADNET pp. 232-233.

30 ibid.

31 ibid.

32 ibid.

33 ibid.

34 K. Sethes Urkunden der 18 Dynastic (Leipzig 1905) pp. 1-11; V. Loret, l'inscription d'Ahmes fils d'Abane (Bibl. d'Etude IFAO, le Caire 1910); Breasted, op. cit. II § 1-13; 81-82, ANET p. 233 f.

35 See Breasted, op. cit. II § 39 note d & § 81.

36 The Taking of Joppa; Gardiner, Late Eg. Stories p. 82-85, Erman, op. cit. 167-169; Lefebvre, op. cit. pp.

37 Ch. Kuenj; La Bataille de Cadech (Memoire, IFAO LV, le Caire 1928); Gardiner, The Cadesh' Inscriptions of Ramsess II Oxford 1969).

39 K.A. Kitchen, Ramasside Inscriptions (Liverpool 1968) Vol. IV fasc. 1 p. 12--19; Erman, op. cit. 274-278, ANET p. 376.

39 A.H. Gardiner, Davies's Copy of the Great Speos Artemidos Inscription JEA XXXII (1946) p 47-78; ANET 230-231.

40 Gardiner, Late Eg. Stories pp. 61-76; Erman, op. cit. pp. 174-185; Lefebvre, op. cit. p. 204 ff,

41 The Brentesh Stela; E. Legrain, Les monuments égyptiens de la Bibliothèque Nationale (Paris 1879-81) Pls. XXXVI-XLIV ; Breasted, op. cit. III §§ 426-427; ANET p. 29.

(٤٢) المسرح المصري القديم تأليف ايتين دريوتون وترجمة ثروت عكاشة (القاهرة) ١٩٦٧ صفحة ١٢٤ وما بعدها.

43 R. Stadelmann, Syrisch-Palastinen Sische Gottleiten in Agypten (Leiden 1967).

44 A. H. Gardiner, Die Erzahlung des Sinude ... etc. 1 B 265.

(٤٥) أنور شكري : أتوريس قصة الحضارة المصرية ـ مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول العدد الثامن المجلد الثاني – ديسمبر ١٩٤٦ (١٩٤٧)

45 H. Junker, Die Onuris - Legende (Wien 1917);
H. Juenter, Der Auszug der Nachor-Tefnut aus Nubien (Berlin 1911).